أقصوصة ساحرة كتبت ببراءة الطفولة وعمق الخيال

نجوم في النهار

"قد لا تكون النجوم في السماء فقط، بل
في قلب من يؤمن بالحلم."

كتبتها الكاتبة

يمنى داي

عام 2021
وهي في الثانية
عشرة من عمرها

حكاية عن الإيمان بالأحلام
والبحث عن الضوء الذي لا يُرى

نجوم في النّهار

عشيّة يوم الأحد

اسمي أحمد، وأنا شابّ في الخامسةِ والعشرينَ من عُمري، ولحسن حظّي وُفّقت في دراستي طامحا إلى أن أصبحَ مستكشفا، فأنا فَتًى طُلَعَةٌ يُحبّ الاستطلاعَ والمغامراتِ الشيّقةَ، فضوليٌّ يُريد معرفةَ كلِّ شيء. وصادفَ أن جاء يوم قد تظنّونَه كسائر الأيّام، لكنّه يومٌ عجيبٌ لن أنساه ما حييت...

لقد كنتُ عشيّةَ يومِ الأحد في بيت جدّي، فهو المكان الّذي يجمع العائلة، وبينما نحن بصدد الحديث قَصَّ لي حكايةً أردت أن أشارككم إيّاها: في العصور القديمة كانت فئةٌ من النّاس منشغلةً برواية الخرافات، في حين أنّ مجموعةً أخرى كانت مهتمّة ببعض الأعمال... وفي أثناء ذلك قال بعضُهم إنّ هناك نجوما جميلة متلألئة لامعة تخطف الأبصار موجودة بهذا الكون الفسيح... فقاطعتُ جدّي قائلا: ما رأيكَ أن نراقب النّجوم في اللّيل لعلّنا نجد أحدها... فاستأنف جدّي كلامه: إنّ هذه النّجوم لا تظهر في اللّيل بل في النّهار! بقيت فاغرًا فِيَّ، مشدوها ممّا سمعت... ثمّ قلت: هل سأجدها إن بحثت في وضح النّهار؟ فقال لي: «كلّا. إنّها موجودة في بلد آخرَ حيث لا تعلمُ يا بنيّ!». فقلت متمتما: «صرت أشكّ أنّ جدّي من الفئة الّتي تحبّ رواية الخرافات! ولكن، لا بأس، البحث لن يجعلني أخسر شيئا...»

بداية الطّريق

استشرت والديّ - يا أحبّائي- في السّفر بغاية البحث عن النّجوم الّتي حدّثني عنها جدّي... ولكنّهما عارضا رغبتي معارضة شديدة، فهما يريَان أنّ العثور على نجومٍ في النّهار أمر سخيف لا فائدة منه وأنّ عليّ أن أجد شغلا بدل إضاعة الوقت... وبعد إصرار وإلحاح شديدين وافقا كارهيْن...

فحزمت أمتعتي في حقيبة هيّأتُها لهذا الغرض... وبعد يومين انطلقت في اتّجاه المطار... وكنت رغمَ ما أبديتُه من شوق وحماس لهذه المغامرة متوتّرا، فهذه أوّل مرّة أغادر فيها مسقط رأسي وحيدا... وعند وصولي المطارَ بقِيتُ أذْرَع المكان جيئة وذهابا ناظِرًا في ساعتي اليدويّة، منتظرا ساعة الرّحيل...

وكان وداعُ عائلتي أليما فقد فارقتها وقلبي يفيض شجنًا... إلّا أنّ جدّي لم يتوقّف عن تشجيعي على المضيّ قدما بصوته الحنون وقسمات وجهه الهادئة وكلماته اللّطيفة الّتي ظلّت ترنّ في أذني... فقد كان دائما حافزي ودافعي إلى تجاوز العراقيل والصّعوبات...

وهكذا كانت بداية الطّريق...

كانت وجهتي الأولى"أوروبا"... ولم تَدُم الطّريق إليها طويلا، فقد بلغت مطار "أورلي" بفرنسا سريعا. وقد اكتشفت أنّها من أجمل البلدان، فهي قريبة إلى وطني "تونس" الّذي "هجرته مغرورا على صغري، إذ كان طيشي بالأسفار يغريني".

استأجرت شقّة بمدينة "باريس"... كانت شقّة ضيّقة متواضعة لم يخطر ببالي يوما أن أنام في مثلها... سرح بي خيالي إلى مناظر أَلِفتُها... فاشمأزّت نفسي من أوّل وهلة... ومع ذلك صلّيت ركعتين شاكرا اللهَ على نِعَمه الّتي غمرني بها... ثمّ خرجت للتّجوّل و النّزهة وزيارة الأماكن الهامّة، وقد كانت كلّ الزّيارات مبرمجة، فأينما حللت وجدت التّرحاب والقبول الحسن...

كان متحف اللّوفر رائعا بكنوزه الثّمينة وتحفه النّفيسة وآثاره الخالدة. إنّه حقّا لَكتاب مفتوح تقرأ فيه نبذة من تاريخ الإنسان وثقافته العميقة وحضارته المتجذّرة وذوقه الرّفيع وإتقانه اللّامتناهي... واتّجهت بعد ذلك إلى برج "إيفل" أحد عجائب الدّنيا السّبع... وقفت أمامه مذهولا من عظمته وعظمة المادّة المستعملة في إنشائه في عصر خال من الرّافعات وآلات القَطْع الكبيرة، ثلاثمائة وأربع وعشرون مترا ارتفعت بفضل المجهودات البشريّة والعزائم القويّة! حقّا، لقد أنساني جمال هذه المدينة الأخّاذ السّبب الّذي أتيت من أجله... وأنا إلى هذه اللّحظة لا أدري لماذا دفعتني هذه النّجوم إلى فعل كلّ هذا... أهي تستحقّ؟ وهل سأندم على بحثي عنها؟

و بدأَتْ أسوأ الاحتمالات تجول بخاطري...

النّدم على السّفر

وتطايرت وُريقات اليوميّة، ومرّ من السّنة ربعها وقد زرت خلال هذه الفترة "روما" عاصمةَ "إيطاليا" و قلبَها فتعرّفت على طعامها ومعالمها الأثريّة وبعض عاداتها وتقاليدها، و"ألمانيا" هذا البلد الجميل ساحر العيون...

وفي أوّل يوم من شهر أفريل، حدث ما لم يكن في الحسبان... اتّصلت بي أمّي، وقد كانت متلعثمة، تتحدّث هامسة، ولاحظت أنّها أطالت الحديث على غير عادتها... وفي الأخير أخبرتني أنّ جدّيَ العزيز قد توفّيَ بعد أن اشتدّ به المرض...

كانت صدمتي كبيرة لا توصف... جدّي الّذي أرادني أن أصبو وأحقّق حلمي وحلمه يتركني الآن لأبقى كالرّيشة في مهبّ الرّيح!...

أفكار متلاطمة جالت بخاطري... لا أدري، هل كان خوفا شديدا أحاط بقلبي أم قلقا وحيرة ممّا ينتظرني في سفرتي... لا أدري هل أتوقّف وأعود إلى مسقط رأسي أم أواصل طريقي في اتّجاه "آسيا"...

فكّرت مليّا في الأمر وأطلت الجلوس في غرفتي وحيدا لا أغادرها... امتنعت عن الطّعام والشّراب... مررت بأزمة نفسيّة صعبة، إلى أن رأيتُ يوما جدّي في المنام يخبرني أنّه يرغب في رؤية النّجوم رغبة قويّة... جدّي أرسلني للبحث عن النّجوم ولن أعود إلّا بعد أن أجدها... فحزمت أمتعتي وانطلقت إلى آسيا وكلّي شوق للتّوغّل في غاباتها واكتشاف حيواناتها.

جولة في"آسيا"

"آسيا"، قارّة الجمال مخبّأة الآفاق... ها قد وصلتها أخيرا... أتمنى أن لا تنسيني روعة بلدانها الهدف الّذي جئت من أجله... ذهبت إلى"السّعوديّة" ومكثت فيها شهرا لم يكفني لأزور كلّ معالمها وما يسرّ العيون فيها... وقد أعجبت بعصريّة البناء وفخامته، فالعمارات تكاد تناطح السّحاب في علوّها...

بقيت أتنقّل من بلد إلى آخر... فزرت عدّة مناطق من جنوب شرق آسيا أسرَتني جاذبيّتُها، والتقيت فيها أناسا كثرا وكوّنت صداقات عديدة...

إلّا أنّ كلّ تلك السّفرات والتّنقّلات والرّحلات لم تشف غليلي ما دمت لم أجد ضالّتي بعد... وزاد شوقي لأجد النّجوم العجيبة الّتي كانت تظهر في أحلامي كما وصفها المرحوم جدّي على أمل أن أفعل شيئا يُدخل السّعادة إلى قلبه وإن كان الآن في عالم آخر!

والآن، حان الوقت، وقت الذّهاب إلى القارّة الأمريكيّة... فجمعت أمتعتي وانطلقت إلى أكثر المناطق جمالا و رونقا!

البحث عن العمل

وما إن وصلت "أمريكا" حتّى قرّرت أن أبدأ العمل حتّى لا أظلّ عالة على عائلتي الّتي بقيت على تواصل دائم معها والّتي بقيت هي طيلة مدّة غيابي ترسل إليّ المال الّذي أحتاجه... ها قد حان الوقت الآن لكي أعتمد على نفسي!

كانت وجهتي تحديدا "نيويورك" العاصمة الاقتصاديّة "للولايات المتّحدة الأمريكيّة"... لقد كنت واثقا بأنّني لن أجد صعوبة في البحث عن عمل أمارسه ويكسبني رزقي وقوتي... فقد التقيت هناك برجل صادقته بسرعة نظرا لخفّة روحه ورقّة شخصيّته، وأعلمني أنّه يمتلك مكتبة بالشّارع ذاته الّذي به شقّتي... فعرضت عليه أن أعمل عنده، فلم يرفض ذلك...

وباشرت العمل منذ الصّباح الباكر، فكنت أرتّب الكتب وأزيل عنها ما علق بها من غبار، وكلّما وجدت وقت فراغ جلست إلى طاولة أتصفّح بعضها، لا سيّما ما كان منها متعلّقًا بالأسفار والاستكشاف لأنّي أجد فيها لمحات من حياتي وحلمي بالرحلات والمغامرات...

ولكنّ الجزء الأصعب من عملي يبدأ في اللّيل، حيث أتولّى تغليف الكتب القديمة إلى ساعات متأخّرة ترهق عينيّ...

مرّ الشّهر الأوّل وقد بدأت أحسّ بآلام في ظهري وتورّم في عينيّ من فرط السّهر! وكان أجري مبلغا زهيدا لا يكفي إلاّ للنّزر اليسير، لذلك حدّثت مالك المكتبة السّيّد "إدوارد"بأنّني قرّرت ترك العمل عنده فقبل استقالتي كارها...

ولم أطل المُكثَ في البيت، فمالكة العمارة الّتي أقطنها نصحتني بالعمل مع صاحب مطعم اسمه "أدريان" وقالت إنّه رجل ثريّ وإنّ أجري سيكون كبيرا، فهرولت نحوه مسرعا من الغد... فقبلني وعيّنني نادلا. وكان من الصّعب إيصال طلبات أناس كثر لا يشبعون!

ومرّ نصف شهر واستقلت لأنّني أشعر برغبة جارفة في ألاّ أعمل تحت القيود وأن أنفّذ أوامر شخص ما...

منظّف الأحذية و المغازة

اخترت من شوارع "نيويورك" أكبرها وأكثرها ناسًا، وجلست على خشبة فوق قارعة الطّريق... فيضع النّاس الكثيرون أرجلهم العديدة متدافعين، وكل لديه نفس هدف الآخر، ألا وهو الذهاب إلى العمل نظيفا

وأنيقا. وكان هذا يسرّني! وقد مرّ بي ما يقارب العشرين شخصا. فشعرت بمزيج من السّعادة حينًا والإهانة حينًا آخر... وكنت أحسّ أحيانا بأنّ ظهري تقوّس من الجلوس... ومع اشتداد وطأة حرارة الصيف، صار من غير الممكن أن أواصل العمل بالشّارع فتركت مهنة منظّف الأحذية...

ومع انطلاق شهر جويلية، عملت مع رجل يدعى "بول" في مغازة كبيرة مكيّفة، وهذا أكثر ما أسعدني! وبدأت بتنظيفها، لكنّ النّاس المتدافعين بين الأروقة لم يسمحوا لي بإتمام عملي على أكمل وجه؛ فأخبرت "بول" بما يزعجني فغيّر الخطّة التي كنت مكلّفا بها. وواصلت في هذه المهنة إلى أن حلّ شهر أوت، فحزمت أمتعتي... لكن، تناهى إلى مسمعي صوت صاحبة الشّقة تناديني قائلة إنّ هناك شخصا يريد لقائي... ترى من يكون؟ أنا لا أعرف أيّ أحد هنا... ماذا يريد منّي؟ أسئلة كثيرة تجول بخاطري...

الصّديق الجديد

نزلت على عجل من شقّتي، فوجدت شابّا يبدو في عمري أو أكبر منّي بقليل، أخبرني بأنّ اسمه هو "جو" وقال إنّه ولد بأمريكا و إنّه تبعني عند العودة من المغازة إلى أن عرف مسكني. وقال لي أيضا إنّ والده تونسيّ وهو صديق والدي, وإنّ وجهته هي "أستراليا", فأعلمته بأنّني أشاركه المَقصَد. فقرّرنا السّفر معا وأصبحنا صديقين لأنّه يحمل بين جنبيه قلبا يزخر بالعواطف والأخلاق النّبيلة. وكان الحديث مع "جو" ممتعا إذ أنّه يجيد التّكلّم بالانجليزيّة والعربيّة والفرنسيّة كذلك.

وانطلقنا بعد بضعة أيّام سويّا في اتّجاه "أستراليا"... وكانت مرافقة "جو" لي أمرا رائعا, فمنذ سنتين لم ألق أنيسا ولا رفيقا يكسر شوكة وحدتي...

و قد اكتشفت من خلال حديثي إلى صديقي الجديد أنّه يطمح إلى أن يصبح أستاذا جامعيّا, فأعلمته أنّي أريد أن أغدو مستكشفا يدرس عن الحيوانات و أنواعها والغابات و مميّزاتها، فأبدى إعجابه بي وأخبرني أنّ رحلاتي وسفري حول القارّات وبالأخصّ "أستراليا" سيكون عاملا أساسيّا في نجاحي في عملي مستقبلا...

وهبطت بنا الطّائرة, و شعرت أنّ الأدغال تناديني: « تعال يا أحمد واشف غليلك واكتشف! ما خلقت إلّا لهذا!» فقرّرت أن أرتاح قليلا بعد سفري كي أكون مستعدّا لتلبية النّداء.

استكشاف "أستراليا"

"أستراليا" ! لكم أحببتك يا مملكة الحيوانات يا أرض الغابات والأدغال والحشرات وأندر أنواع النّبات. ها قد أيقظَتني شمسُك الوهّاجة في صباح جميل وكلّي شوق لرؤيتك عن كثب والإجابة عن تساؤلات الكثيرين... وكنت على قدر شغفي بالاكتشاف, مولعا بالتصوير فكسبت من المعلومات و الصور ما ملأ أوراقي وملفّاتي...

كان كلّ يوم من حياتي يمضي سريعا ويأتي بعده آخر أكثر صعوبة من سابقه... لكنّي أشعر أنّها الأحلام تدغدغني برقّة ملوّحة بمستقبل مشرق، مستقبل كلّه نجاحات وإبداعات تبني خبرتي وثقافتي وتُنمّي عقلي... وكنت كلّما تذكّرت جدّي زادت حماستي وقوّتي وطاقتي على تقديم الأفضل في كل لحظة... كم أشتاق إليك عائلتي! لن يطول فراقنا... لا أعلم متى نلتقي, ولكنّني أعلم أنّي سأعود محقّقا الأعجوبة ألا وهي رؤية النّجوم العجيبة الّتي فعلتُ كلّ شيء من أجلها... إني أتوق إلى رؤيتها مهما كلّف ذلك! لقد شققت طريقا لن أتوقف في منتصفه!

حزمت حقائبي، وأخذت آلة التصوير ومدوّنتي، وجلت هذه الأماكن العجيبة. ولا تسألوا عن حالي عندما رأيت حيوان الكنغر لأول مرّة في حياتي... إنّ الاستكشاف متعة للرّوح وغذاء للعقل. لن أنسى ما عشته من ذكريات جميلة في رحلتي... غصت في مخيّلتي أتطلّع إلى يوم أكتشف فيه فصيلة جديدة من الحيوانات أو عشبة صحيّة تكون دواء للمرضى أو أماكن مخبّأة لا يعرف النّاس عنها شيئا... و بينما أنا هكذا قاطعني صوت "جو" مناديا: «عزيزي... اشتريت تذكرتَي السّفر إلى "إفريقيا" كما طلبت. سنعود إلى بيوتنا حيث سنلقى أصحابنا وأحبابنا وكلّهم شوق إلى رؤيتنا!»

و بإنهاء كلامه تأثّرت, و بذلت جهدا في إمساك دمعي متخيّلا أمّي تناديني وتضمّني بحنانها المعهود, وأبي يقبّلني وينظر إليّ بوجهه الهادئ حامِدًا اللهَ على سلامتي, وجدّتي تُسرع إلى لومي على تهوّري، فنغرق في الضّحك ولا نأكل العشاء من شدّة الفرح...

إنّ العائلة هي الأمان الوحيد الّذي مهما اصطدمت به المصاعب، فلن تزيده إلا تماسكا وصلابة... فعند الشّدة ووقت الصّعاب ينسحب الجميع، وتبقى العائلة. وكلّ القلوب تصدأ مع توالي العقبات، إلا قلب العائلة لا تغيّره الدّنيا بكلّ ظروفها...

لقد سهوت بسبب مشاعري عن "جو" الّذي نظر إليّ مبتسما، فهو يقدّر أنّ الفراق صعب جدّا...

العودة

يمرّ الزّمان على النّاس فيغيّر فيهم الكثير... لم أكن أتوقّع ان أحلّ بمطار "قرطاج" بالطّريقة الّتي حللت بها أنيقا أرتدي ملابس جميلة مرفوع الرّأس وأنا أتوق إلى رؤية عائلتي. ركبت سيّارة أجرة كي تقلّني إلى حيّنا. فمررت بالبطحاء الّتي كنت ألعب فيها في صغري مع أقراني، ثمّ بالبائع الّذي حيّاني بحفاوة... تُرى هل لاحظ غيابي؟... وأخيرا, وصلت بيتي! أطلّت بنت الجيران فرأتني، ولا أنكر أنّ الفزع بدا على وجهها ودخلت تدعو أمي لرؤية الضّيف الّذي لم تعرفه... فخرجت حاملة طبقا كبيرا أسقطته لمّا رأتني؛ إنّها هي بوجهها اللّطيف وبثوبها الّذي ذهبت الشّمس بلونه... ويبدو لي أنّ صوت اصطدام الطبق بالأرض قد شوّش على نوم أبي فخرج محافظا على دمه البارد وهدوء أعصابه متسائلا... وقف والداي جنبا إلى جنب – وكنت قد تغيرت قليلا بلا شكّ – فطال العناق وكثرت القبلات ودوّت الزغاريد في أرجاء الحيّ فملأ بيتنا دموعا وضحكات وتسامرنا سويّا وتحلّق الكلّ حولي يستمعون بآذان صاغية إلى أطوار رحلتي فشعرت بقلبي طافحا بالغبطة ...

ولا تظنوا أني نسيت ان أخبركم عن النجوم! إن النجوم التي تتلألأ في النهار والتي دفعتني لخوض أعظم مغامرات حياتي هي الناس الذين يعملون والذين يبذلون جهدا في كسب الرزق بكدّ اليمين وعرق الجبين، لا العاطلين الذين يكونون عالة على غيرهم ويعيشون كالأعشاب الطفيليّة التي يجب اقتلاعها.

إن العمل أساس الحياة حقا! ولقد تعلمت درسا لن أنساه ما حييت... شكرا لك يا جدي! أنت رائع حقّا! ليتك تراني الآن وأنا أشغل منصبا عاليا في عملي الجديد. إنّ الفضل يعود إليك، فشكرا.

*** تمّت ***